مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 13 / العدد: 01 (مـــاي 2025) ص 523–539
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

من الأبعاد الجمالية لنظرية النّظم للجرجاني (ت471هـ)

The Aesthetic Dimensions of the Theory of Systems by Al-Jurjani (d. 471 AH)

فاطمة سرحاني [1]، أ.د/ إدريس بن خويا [2]
Fatima SARHANI[1], Idriss BENKHOIA[2]
1 مخبر الفضاء الصحراوي في مدونة السرد الجزائري، جامعة أحمد درايعية –أدرار (الجزائر)
fat.sarhani@univ-adrar.edu.dz
2 جامعة أحمد درايعية –أدرار (الجزائر)، benkhoia.idriss@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الاستلام: 2024/04/16	تاريخ القبول: 2025/05/24	تاريخ النشر: 2025/05/28

الملخص: نظريّةُ النّظْمِ ؛ نظريةٌ في اللّغةِ توثّقت صِلتُها باللغوي عبدُ القاهر الجرجاني (ت471هـ) في الفكر العربي وخاصة البلاغي، وإنْ كانت بداياتها سابقةٌ لزمانه، فقد أبانَ عن تضلّع، وقدرة في استخراج دلائل الإعجاز القرآني، والوقوف على سرِّ البيان فيه، وفي كلام العرب، مستغلاً طاقاته اللغوية، والبلاغية، معتمداً النحو لتشكيل مادته الفنية ، وقد أبدع في نظريته الجماليّة تنظيراً ، وتطبيقاً، حتّى عُدّ إمام البلاغة، فكان كتابه (دلائل الإعجاز) جامعاً لفكره القائم على ربط اللفظ بالمعنى في التركيب، وما ينتج عنهما من صور متلاحقة، وأعطى أهمية بالغة للصورة الشعرية، وعدّ الأسلوب ضرباً من النظم، إذْ لكل ناظم اختياراته تبعاً للمعاني المراد إيصالها، والأغراض المخبر عنها ،وهو ما سنوضحه من خلال البحث.
الكلمات المفتاحية: نظرية النّظم، عبد القاهر الجرجاني، النّظم وجمالياته، اللفظ والمعنى، الصورة الشعريّة.

Abstract: The theory of systems, a theory of language, whose connection was strengthened with Abd al-Qahir al-Jurjani (d. 471 AH) in Arab thought, especially rhetoric. Although its beginnings were prior to his time, he demonstrated his mastery and ability in extracting evidence of the Qur'anic miracle and discovering the secret of the statement in it and in the speech of the Arabs, exploiting his linguistic and rhetorical energies. He relied on grammar to form his artistic material, and he excelled in his aesthetic theory in theory and application, until he was considered the Imam of Rhetoric. His book (Evidence of the Miracle) was a comprehensive of his thought based on linking the word with the meaning in composition and the successive images that result from them. He gave great importance to the poetic image and considered style as a type. Of the systems, each organizer has his own choices depending on the meanings to be conveyed and the purposes reported, which we will explain through the research..
Keywords: Rhythm theory, Abdul Qaher Al-Jurjani, rhetoric, pronunciation and meaning, poetic image.

المؤلف المرسل: فاطمة سرحاني ، **الإيميل**: sarhanifatima88@gmail.com

1. مقدمة:

يعدُّ عبدُ القاهرِ الجُرجَاني رائداً من روّاد الفهم في المستوى الأسلوبي للنص الأدبي، من خلال نظريته– نظرية النّظمِ– ، وملاحظاته الدقيقة للعلاقة بينَ ما هو صياغةٌ للكلام – الأسلوب– ، وبين النحوِ والبلاغة ، إذْ وضَعَ علم البيان والنظم في الموضع الصحيح له، فلا يستطيع باحثٌ في قضيةٍ من قضايا البلاغة تجاهله ، ولا تجاوزَ كتابيه (أسرار البلاغة)، و(دلائل الإعجاز)، هذا الأخير الذي تولدّت عنه نظرية النّظم في الإعجاز القرآني، التي تقاسمتها الآراء، والادعاءات بين الأسلوبيّة، والدلاليّة ،والشعريّة، ما بين مؤيّدٍ ومسيءٍ للفهم لاختلاف قراءاتهم لها. فهي النظريةُ التي ضَمِنَتْ المعنى، والدلالة، ونَفَتْ عن البلاغة اهتمامها بالشكل دون المعنى، كما نَفتْ عنها المعيارية التعليمية والجمود.

هذا الموضوع كلمّا صادفنا يثير فضولنا، ويشدّ اهتمامنا للبحث فيه، وها هي الفرصة تتاح من جديد؛ فهو موضوع بمكان اخترناه محاولين فكّ بعض رموز النظريّة –نظريّة النّظم– وعلاقتها بالعمل الأدبي وفهمه، ونظرته للفظ خارج التركيب وداخله، ومدى اعتداده بالإمكانات النحوية، تبعاً لاحتمالات الأوضاع الكلاميّة، فما هي الأسس الجمالية الّتي قامتْ عليها هذه النظرية؟ ومَا أسبابَ وضعِها؟ ومَا حقيقةُ العمل الأدبي عنده ؟،وكيف يمكن فهمه؟

2. عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظّم

يعدّ عبد القاهر الجرجاني من مؤسسي علم البلاغة ،ومن الروّاد الذين نَحو بالدّرس اللغوي البلاغي نَحْوَ الأسلوبيّة الحديثة، فأصّلُوا لها في الدّرس العربي القديم ، وجعلوا لها جذوراً مؤصلة. (شمس الدين، صفحة 439)

1.2 نظرية النّظم ، مفهومها و حدودها:

فكرةُ النّظمِ قَالَ بها المعتزلة قبل عبد القاهر الجرجاني، فنجدها عند الجاحظ (ت 255هـ) والرمّاني (ت386هـ)، وعبد الجبار المعتزلي (ت415هـ)، وإن تداولتها بيئة أهل السنة فقال بها الخطابي (ت 388هـ)، ثمّ الباقلاني (ت403هـ)، وعبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)...

فهو لم يخترعها لأن فكرة النّظم مسبوق إليها عند من ذُكِروا، والمفهوم عنده كان شائعاً منذ القرن الرابع الهجري، وتحديداً منذ مناظرة " أبي سعيد السيرافي" و" متّى بن يونس"، ومن هذا شُهِدَ له بأنّه مؤسس (علم المعاني)، وقد أبدع وتفرّد في الجانب التنظيري ، والتطبيقي لفكرة النحو العربي، من زاوية علم المعاني، ومن زاوية الجمال البياني ، فبعث في النحو روحاً وحيوية، إذ من ذلك أقرّ أنّ لتركيب الكلام ،أو ما نسميه اليوم (الأسلوب) شأن كبير في تقريب المعنى، أو غموضه، وحسن الوقع أو النفور. (مصطفى الصاوي الجويني، 1985، الصفحات 71–77)

وإنْ استُخدِم هذا المصطلح قبل عبد القاهر الجرجاني، إلّا أنّه لم يكن واضحاً كما استخدمه " عبد الجبّار المعتزلي"، الذي قصد به نَظْمُ الألفاظ وتخيّرها، وهو ما أفرز تقليلاً من شأن المعاني عند بعض النّاس، فسعى الجرجاني إلى تفنيد تلك الرؤى، وتصحيح مفهوم النّظم بقوله: " لو كان القصد بالنّظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها ، لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النّظم، أو تميّز الحسن فيه، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساساً واحداً، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئاً ليجهله الآخر" (عبد القاهر الجرجاني، 1996، صفحة 83)

فقد تفطّن الجرجاني إلى ضرورة النّظم ، وأن يكون لكل تغيير في ترتيب الكلم ، والألفاظ تغييراً يتبعه في المعاني، وكل هذا يقوم على المبدع الأديب الذي له حريّة تخيير واختيار الألفاظ ، وترتيبها في نسج يتوخى معاني النحو حسب مقتضيات أحوال المخاطبين، ومقامات المقال.

فترتيب المعاني في النفس هو النّظم عند الجرجاني، وليس هو ترتيب للألفاظ إلّا من حيث كونها تبعاً للمعاني، وخدماً لها، هذا ما يمكن أن نسميه التفكير بواسطة اللغة أو اللفظ.

وهو ما يميز بين نوعين من المعنى: **المعنى العام** (أصل المعنى) ويعرفه الجاحظ بقوله" المعاني مطروحة في الطريق" ولا مجال للتفاضل فيه بين الشعراء والأدباء، لأنّه شائع بينهم وهم في المعرفة به سواء.

و**المعنى الخاص** : ويتفاوت فيه الشعراء، والأدباء، ويفوق بعضهم بعضا بقدر ما يأتون من تفضيلات، وجزئيات ودقائق، ولطائف هي مناط الأدبية ، والإبداع . (بودوخة، 1439-2018، الصفحات 87-79)

هذه النظرة عند الجرجاني تلتقي مع الدرس الأسلوبي؛ من حيث إنّ الأسلوبيين يهتمون بدراسة الخطاب الإبداعي لا العادي، محاولين الوقوف على جمالياته، وكشف أسراره، وربطه بالمبدع ، والمتلقي انطلاقاً من اللغة (النص ذاته أو الخطاب).

وقد اعترف الجرجاني في كتابه (دلائل الإعجاز) بإجماع العلماء على تعظيم شأن النّظم وتفخيم قدره بقوله:" وقد علمت إطباق العلماء على تعظيم شان النّظم وتفخيم قدره والتنويه بذكره، وإجماعهم على أنّ لا فضل مع عدمه، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له" (عبد القاهر الجرجاني، 1996، صفحة 63)

يعترف له بالسبق في تحديد حدود نظرية النّظم، بعد أن سُبِقَ إليها، فقد قلّب بها موازين الدرس البلاغي إلى ما هو أفضل ، ويتماشى مع الدرس الأسلوبي الحديث...

فالنّظم عنده هو إدراك المعاني النحوية الملائمة بينها ،وبين المعاني النفسيّة في نسج الكَلِم وتركيبه، وفي ضوء ذلك يقول:" واعلم أن ليس النّظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه

وأصوله وتعرف مناهجه التي نُهِجَت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسِمتْ لك فلا تَخْلُ بشيء منها" (عبد القاهر الجرجاني، 1996، صفحة 02)

فمقتضيات الحال هي التي تستوجب تركيب الألفاظ والمعاني، على وضع معلوم ما، كباب الخبر مثلاً له فروق ، ووجوه وكذلك باب الشرط والجزاء، وهو ما نراه في قوله:" وذلك أنّنا لا نعلم شيئا يستتبعه النظام بنظمه، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك:" زيد منطلقٌ، وزيدٌ ينطلق، وينطلق زيدٌ، ومنطلقٌ زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيدٌ، وزيدٌ هو المنطلق، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخْرجْ أخْرجْ، وإنْ خَرجْتَ خرجْتُ ، وإن تخْرُج فأنا خَارج ، وأنا خَارجٌ إن خرجْتَ، وأنا إنْ خرجتَ خَارجٌ" (عبد القاهر الجرجاني، 1996، صفحة 03)

لقد مثّلت نظريّة النّظم من هذا المنحى مدرسة تمتلك آلياتها في التعامل مع الخطاب من منظور لغوي بياني، معتمداً في ذلك على محورين، وهما: **محور النحو** الذي يخص الجانب الشكلي للغة وبنية الجملة، و**محور المقصد** ، وغاية المخاطِب من إنتاجه للنص وعلاقته بالمتلقي، وهو هنا يشير إلى المستويات التي يقوم عليها النّظم ودور المتكلم، وغالباً ما أشار إلى العملية التواصلية في جانبها التداولي من متلفظ ، ومتلفظ إليه ، وقناة ،وعقد (السعيد بوطاجين، 2017، صفحة 239).

ويؤكد "محمد كريم الكوّاز" في كتابه (البلاغة والنقد) أنّ نظرية النّظم أسهم فيها علماء كثيرون، ومرّت في ظروف مختلفة قبل نضجها ووضوح معالمها واستقرار منهجها، وهي نظرية بينها والدراسات الأسلوبية الحديثة علاقة، كما لها امتداد في عمق التراث العربي الإسلامي ،خاصة ما تعلّق منها بالبحث عن وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، فكانت بذور نشأتها في الدراسات القرآنية، وبعدها انتقلت إلى الدراسات الأدبية... (محمد كريم الكواز، 2006)

2.2 أسباب وضع نظرية النّظم:

تعدّ نظرية النّظم من أهم النظريات في البلاغة العربية، ومعناها التأليف، ومعنى النّظم في اصطلاح البلاغيين والنقّاد تنسيق دلالة الألفاظ، وتلاقي معانيها بما تقوم عليه معاني النحو في أمَاكِنها على الوضع الذي يقتضيه العقل.

وقد عمد الجرجاني من خلال وضعه لهذه النظرية إلى تفسير مسألة الإعجاز تفسيراً علمياً لكي تكون الحجة به قائمة دائماً، ولم يكتف كما اكتفى البعض بالقول إنّ عَجْزَ العرب وغيرهم بدأ من التحدي الكامل إلى التحدي

الجزئي (بسورة واحدة، أو بعشر سور...) هذا العجز في نظر بعض المهتمين كان دليلاً كافياً على سمو أسلوب القرآن على الأسلوب العربي.

لكنّ عبد القاهر الجرجاني رأى أنّ التحدي لم يكن مطروحاً على معاصري النبي صلى الله عليه وسلم، وحدهم حتى يكون صمتهم وعجزهم حجّة تتسحب على من بعدهم، وإنّما التحدي بمعنى صنع شيء يفوق قدرة البشر، مطروح على هؤلاء، وعلى كل من أتى بعدهم، ومن هنا فلا بدّ من تفسير هذا التفوّق تفسيراً علمياً، وتوضيح الجانب البلاغي الذي يتميّز به الإعجاز وهو ما دعا عبد القاهر الجرجاني إلى وضع نظريته في النظم.

وأمر آخر من وراء هذه النظرية كان يهدف إليه عبد القاهر الجرجاني وهو استفادة الأدب العربي من طريقة البناء المحكم التي وردت في الأسلوب القرآني، ومحاولة إدراك الخصائص الجمالية في اللغة التي أحسن القرآن استغلالها في صنع هذا الأسلوب المعجز، والسعي إلى إدراك هذه الخصائص الجمالية ؛هو خطوة في طريق التفسير الموضوعي للجمال اللغوي، وهذا التفسير من شأنه أن يساعد دارسي اللغة وأدباءها لوضع أيديهم على مواطن التعبير التي تشع بالإمكانات التعبيرية المختلفة التي يمكن استغلالها في المعاني النفسيّة (أحمد درويش، 1988، صفحة 116).

وقد تدارك بنظريته ما كان منه في كتاب (أسرار البلاغة) من مجرد المبادئ التي بقيت معياراً للخصوصيّة والتميز البلاغي؛ مبدأ البناء على الجمل والصور البلاغية وتناسب المستويات المتحققة سعياً لمزيد من التركيب (محمد العمري، البلاغة العربية، 1999، صفحة 365).

وفي هذا يشدّد الجرجاني على تعلّق الكلِم بعضها ببعض، وبعضها من بعض بطُرقٍ معلومةٍ، وأنّ الكلام ثلاثة أقسام (اسم وفعل وحرف) في قوله:" وليس النظم سوى تعليق الكلِم بعضها ببعض، وجعل بعضها من بعض، والكلام ثلاث؛ اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلّق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق حرف بهما...{ ومختصر القول } أنّ كل الأمر أنّه لا يكون كلامٌ من جزء واحد وأنّه لا بدّ من مسند ومسند إليه" (عبد القاهر الجرجاني، 1996، صفحة 64)

فالنّظم توخي معاني النحو ووضع الكلام الموضع الذي يقتضيه علم النحو ، كما سلف الذكر من حيث النظر في أساليب الخطاب – الخبر والشرط ،والجزاء والحال، وفي الحروف ومعانيها وخصوصيتها –، فيوضع كلاً موضعه لغرض المتحدث، وذلك ضمن إجراءات منها: التقديم والتأخير ، والتعريف والتنكير ، والحذف والإضمار، والإعادة والتكرار وغيرها... (عبد القاهر الجرجاني، 1996، صفحة 68)

فهو يرى –الجرجاني– أن المزيّة البلاغية موجودة في النّظم وحده على غرار الكناية والمجاز (محمد العمري، البلاغة العربية، 1999، صفحة 164)

وهذا ما جعل الجرجاني يقر بأنّ مَا منْ حُسْنٍ أو ارتياحٍ أو اهتزاز يستشعره القارئ للشعر أو غيره من حكم وأدب أو استعارة أو تجنيس يعود إلى الإجراءات النظميّة.

ومن هُنَا وبعد معرفة النّظم ونظريته وأسباب وضعها، فهل يمكن أن نفرّق بين النظم والنحو؟

لنُجيب ونقول إنّ النّحو ليس هو النّظم، ولا النّظم هو النحو، رغم ما احتكم إليه بعض دعاة إحياء النحو بأنّ نظرية النّظم هي رسم لطريق جديد في النحو، فبينهما فرق شاسع؛ إذ إنّ معاني " النحو" ثابتة لا تحتاج إلى جهد ومعاناة، أمّا (النّظم) فيكون في حسن التخيّر، والنظر في وجوه كل باب فينظر في صور الخبر، والأساليب من شرط وتوكيد، وتخصيص ، فيجيء بذلك حيث ينبغي له.

كما يحتاج إلى كثير من التذوق والحس الأدبي والسليقة السليمة، تلك مهمة فوق مهمة البحث في الصواب، والخطأ، ومن هنا ارتبطت البلاغة بالنحو ارتباطاً وثيقاً، حيث تبدأ مهمتها من حيث تنتهي مهمة النحو، لأنّها تتناول الصورة الصحيحة التي تدور حول غرض واحد لترى أيّهما أرفع في درجات البلاغة ولماذا؟.

إنّ علم النحو لا يستقيم إلّا بضم علم المعاني إليه ومزجه ليكون النحو جديداً بالإبانة عن المعاني الوظيفية للمفردات والجمل وفق منهج مطرّد قائم على ربط المبنى بالمعنى (محمد طاهر الحمصي، 2013، صفحة 37)

كل هذا فالنّظم بحث عن تناسب الكلام داخلياً من خلال ترابط أجزائه، وتناسبه خارجياً ،ومناسبته لمقاصد الخطاب، وهذا يجعله ينحو إلى نثرية حجاجية إقناعية ترتكز على فنون الخطاب من شرط، وتشبيهات وغيرها (محمد العمري، البلاغة العربية، 1999، صفحة 372).

والعمري في كتابه (البلاغة العربية ، أصولها وامتداداتها) يعدّ هذه النظرية من الجرجاني سابقة أو إنجازاً بلاغياً متقدماً أو سابقاً لعصره...

وما يثبت قصب السبق للجرجاني إبداعه في عرض مصطلحات قام على أساسها علم الأسلوب والدرس الأسلوبي، ومنها: الاختيار والتناسب والترتيب، الذي ترجمه في النّظم، وربط المعنى بالمبنى، وموافقة كل ذلك لمقام المَخَاطَب.

3. الأبعاد الجمالية لنظرية النظم :

1.3 جمالية نظرية النظم من خلال قضية اللفظ والمعنى:

يبرز الأساس الجمالي لنظرية النّظم في المقارنة التي كان عبد القاهر الجرجاني يعتمد عليها في تفسير خصوصية التركيب وفاعلية النظم، فهو يقارن بين نظم الكلام، ونظم خيوط الديباج المنقّش، فإذا كان تعليل حسن هذا الديباج ينطلق من إدراك كيفية ذهاب تلك الخيوط ومجيئها وماذا يذهب منها طولاً، وماذا يذهب منها عرضاً، وبم يبدأ، وبِمَ يثّني، وبِمَ يثلِث.

فلهذه النظرية قيّم جمالية متعدّدة من حيث قضية اللفظ والمعنى والصورة الشعرية، والإعجاز القرآني وقضايا أخرى.

فإن كانت قضية الإعجاز جزءاً من قضية كبرى هي قضية اللفظ، والمعنى فإنّها في الحقيقة وفي تاريخ البلاغة العربية الدافع للبحث في وجوه البلاغة والباعث على تدوينها... (لخضر الغزال، صفحة 117)

فمن حيث قضية اللفظ والمعنى فإنّ هذه القضية شغلت النقاد والبلاغيين قبل القرن الخامس، وقد أفرزت نقاشاتهم ومناظراتهم اتجاهين هما:

1/ اتجاه يناصر اللفظ ويرد إليه المزيّة من باب أنّ المعاني مطروحة في الطريق.

2/واتجاه يرى أصحابه أنّ المعاني أولى بالشرف والفضيلة لأن الألفاظ أداة لا غير، ومن جهة أخرى كان قسم كبير من النقّاد يكتفي ببعض الأحكام الانطباعيّة العامة (مسعود بودوخة، الصفحات 73-76).

ففكرة النّظم قد قضت على ثنائية اللفظ والمعنى، فهي جمع لأداء عبد القاهر الجرجاني – اللغوي والبلاغي– إذْ أساسها نظرته إلى اللغة والشعر والنحو، ووسيلة إبراز خصائصها ودقائقها هو منهجه اللغوي الذي يعدّ أهم ما يعتز به في تراثنا اللغوي موازنة وما وصل إليه الفكر الحديث؛ باعتبار أن اللغة عنده مجموعة من العلاقات المتفاعلة والفاعلة، التي تحمل نسيجاً متشعباً من المشاعر والأحاسيس، يُظهِر ذلك ويُفصِحه النّظم الذي هو صياغة الجمل ودلالتها على الصورة ، وهذه الصياغة هي محور الفضيلة والمزيّة في الكلام (أحمد علي دهمان، 2000، صفحة 101).

فالفكر عند الجرجاني يترتّب في النطق بحسب ترتيب معاني الكلمات في الذهن، ولو خلَت الألفاظ من دلالاتها حيث تصبح مجرّد أصوات، لَمَا وقع في ضمير ولا ثبت في عقل أن يجب فيها نظم أو ترتيب، فنحن نفكّر بالألفاظ، وهذه الألفاظ لا قيمة لها إلّا عندما تصاغ بفكرة، وتتّحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتدّ الارتباط فيما بينها، بنظم سوي، وإذ كان على خلاف ما ينبغي وصل اللفظ إلى السمع وبَقِيتَ في المعنى تُطليه

وتتعب فيه وإذا أفرط الأمر في ذلك صار إلى التعقيد الذي قالوا إنّه يستهلك المعنى (عبد القاهر الجرجاني وأحمد درويش، الصفحات 44-45).

فكل ما يدعو له أنّه لابدّ وأنْ تستقيم دلالات الألفاظ وتتلاقى مع معانيها حسب ما يقتضيه العقل صحةً وسلامةً من الاضطراب والخطأ وهو ما يثبته بقوله:" وأنّه (...) الصياغة والتحبير والتفويق، والنقش، وكل ما يقصد به التصوير، بعد أن كنّا لا نشك في أنّ لا حال للفظة مع صاحبتها تعتبر إذا أنتَ عزَلتَ دلالتهما جانبا" (عبد القاهر الجرجاني وأحمد درويش، صفحة 41).

وقد رأى أنّ السِّر في بلاغة أيّ تعبير تعود إلى ما بين المعاني المدلول عليها بالألفاظ من تآخ وارتباط، وهو تآخي معاني النحو، تبعاً للأغراض التي يوضع لها الكلام وبحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض، فالمزيّة ليست في الالفاظ في رصدها، بل في صياغتها، التي يتفاضل الكلام بها، فهي صورة للمعنى، فسبيل الكلام، سبيل التصوير والصوغ فيه مثل الفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار (عبد القاهر الجرجاني وأحمد درويش، صفحة 69)

وممّا تفطن إليه الجرجاني من خلال قضية اللفظ والمعنى مرافعته على أنّه لا يمكن فصلهما، وتوصله إلى عدّة حقائق منها:

1/ إنّ اللفظ في خدمة الموقف الذي يثار، فحين نكتب لا نجمع ألفاظاً ونضعها الواحدة بجوار الأخرى، وإنّما نعبِّر عن معانٍ، ومنه فالألفاظ وسيلة رمزية لإثارة المواقف، وليست هدفاً في ذاتها، ونجاح الألفاظ ليس في شكلها الخارجي، وإنّما جمالها ونجاحها في قدرتها على توليد المواقف المطلوبة، أو في الإفصاح عن المعنى المراد أداؤه.

2/ إنّ نَاظم الشعر أو مؤلف النثر لا يفكر البتّة في أحد العنصرين –اللفظ أوالمعنى– تفكيراً مستقلاً أو سابقاً على الآخر، وإنّما تتّم عمليّة الخلق من العنصرين معاً، وبطريقة تكاد تكون تلقائيّة، فالألفاظ تترتّب حسب حاجة الموقف إليها، والإحساس هو الذي يولّد الألفاظ المناسبة لنعبّر عنه. (دهمان، صفحة 103).

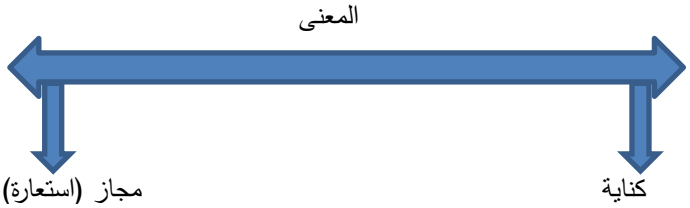
3/ " إنّ الفضيلة والمزيّة في كلام البلغاء، ولا تنصرف إلى اللفظ من حيث هو لفظ مفرد، أو إلى صفات الألفاظ السلبيّة أو الشكليّة، ولكن من حيث قدرتها على إثارة المواقف المطلوب التعبير عنها" (محمد زكي العشماوي، 1979، الصفحات 317-318)

فمن خلال هذه الحقائق، يمكن الوقوف على تفكير ، وصنيع عبد القاهر الجرجاني في نظريته، كما يمكننا الاطلّاع على موقفه القاضي بأنّ ما يناسب الألفاظ من أوصاف هي في الحقيقة أوصافٌ للمعاني التي تدل عليها، فاللفظة عنده مجرد وسيلة تُنقَلُ بها التجارب من لدن المبدع أو الأديب؛ إذْ إنّ اللفظ والمعنى لا يمكن الفصل بينهما

في عملية الخلق الفني ولا في عملية النقد الأدبي، فهما يولدان معاً وفي لحظة واحدة، ولا يمكن أن نعطي قيمة لأحدهما على حساب الآخر.

ويلتقي في هذا الجرجاني مع رائد البحث عن فلسفة الفن وهو "بينيد توكروتشه" في كتابه: (المحمل في فلسفة الفن)، إذْ يرى أنّ ثنائية اللفظ والمعنى لم يبق لها صدى، فالعمل الأدبي مكوّن من عنصرين(الشكل والمضمون)، والصورة شيء والشعور أو الفكرة شيء آخر، لم يعد لهما مجال في دراسة الأدب، وهنا نقطة الالتقاء بين عبد القاهر الجرجاني، و كروتشه الذي سمح في الفن للمضمون ، والصورة أن يميزا ، ولكن لم يسمح أن يوصف كلاً منهما على انفراد، فالشعور هو الشعور المصوّر، وأنّ الصورة (الشكل)، هي الصورة المشعور بها (كروشته، الصفحات 63-64)

فالمعيار عنده (كناية ومجاز(استعارة)



2.3 جمالية نظرية النّظم من خلال الصورة الشعرية:

الصورة عند عبد القاهر الجرجاني لا تشير إلى مفهوم التقديم الحسي للمعنى، بقدر ما تشير إلى طريقة النّظم أو الصياغة، فلم يوجد قبله من لاحقه هذا المفهوم المتطور للصورة الشعرية، باعتبار الصياغة التي تتفاوت في الجودة.

والمعاني التي تدخل في صياغة الصور ماهي إلّا ألوان نفسيّة متباينة، تحدّد الإطار الشعوري والفكري للسيّاق الذي يمكن أن نعده تجربة شعريّة بسيطة، ومحدّدة قد تحدّ بيتين أو ثلاثة.

فما دامت الصورة الشعريّة هي صياغة المعنى المصوّر بفن له خصوصية، تكون مجالاً لإظهار الفرق بينها وبين غيرها. وما دام السيّاق اللغوي الملآن بالشحنات الشعوريّة والفكرية والجمالية هو البناء الذي تقوم عليه الصياغة الفنيّة بعمله، وأنّ النّظم هو صنعة يستعان عليها بالفكرة، فإنّ الصورة العامة للسيّاق هي النّظم الذي به يتفاضل النّاس (دهمان، صفحة 188).

فلو نظرنا إلى تحليله لصورة أبيات (إبراهيم بن العبّاس الصولي) وبيان أسباب حسن النظم فيها لاكتشفنا ذلك؛ حيث نجده يقول: ابراهيم بن العبّاس الصولي، ديوان (الطرائف الأدبية)، ص 132. وينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص 112-113 .

فلو إذْ نَبَا دهْرُ وأَنكرَ صَاحِبٌ *** وسُلّطَ أَعداءٌ وغَابَ نَصيرُ

تكونُ عنِ الأهْوَازِ داري بنجوةٍ *** ولكنْ مَقَاديْرٌ جَرَتْ وأُمورُ

وإنِّي لأَرجو بعْدَ هذا محمداً *** لأفضل ماَ يرجى أخٌ ووزيرُ (ابراهيم، صفحة 132)

إذْ يقول بأنّه اجتمع في هذه الأبيات الحسن والحلاوة مع الرونق ، والطلاوة والسبب في ذلك هو تقديمه الظرف (إذ نَبَا) على عامله الذي هو (تكون)، وأن لم يقل: (فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذْ نَبَا دهر) لأنّ هذا التغيير في ترتيب الكلمات يتبعه تغيير في المعنى، وفي تأثير الصورة في النفس. ثمّ إنْ قال: (تكون)، ولم يقلْ: (كان)، ثم أنكر الدهر ولم يقل فلو إذْ نَبَا الدهر ثم ساق هذا التنكير في جميع ما أتى به من بعده، ثمّ قال (أُنْكِرَ صاحِبُ)، ولم يقل (وأنكرتُ صاحباً) فهذا ما يجعل الحسن في نظم البيتين، وكله من معاني النحو وتوخيها؛ لأنّ التفاعل

بين الدلالات ، والتآزر بين العلاقات القائمة في السيّاق الجامع للبيتين، كلها اجتمعت لتصوغ الصورة بهذا الشكل، وتوضّح جوانب المعنى الذي يقصد إليه الشاعر، وقد جعلت الصياغة المعنى هنا ألواناً نفسيّة نُدرِك بعضها بعقولنا ، ونحس ألطفَها بقلوبنا، وهذا الإحساس هو أساس الذوق عند ناقدنا. (دهمان، صفحة 189)

يشير الجرجاني من خلال هذا إلى (قضيّة الضّم) التي تعمل على انصهار عناصر العمل الفني المؤلفة للعمل الأدبي، واختفائها، لتسير في اتجاه واحد مبرزة المعنى اعتماداً على الصياغة؛ حيث نجده يقول: " فلا يكون الضَّم فيها ضماً ، ولا الموقع موقعاً ، حتّى يكون قد توخّى فيها معاني النحو، وأنّك إن عمدت إلى ألفاظ فجعلت تُتْبِعُ بعضها بعضاً من غير أن تتوخى فيها معاني النحو، لم تكن صنعت شيئاً تُدعى به مؤلفاً، وتشبه معه بمن عمل نسجاً أو صنع على الجملة صنيعاً" (عبد القاهر الجرجاني وأحمد درويش، الصفحات 283-284).

وهو يشبّه الضم والصياغة للكَلِم بالإبريسم عند غزله بعضاً إلى بعضٍ حتى لا تزال الخيوط عن مواضعها، ويبقى الجمال الفني للنّظم في التركيب وجماليته، بحيث لا يمكن الفصل فيه بين اللفظ والمعنى ولا بين المفردة والتركيب، ولا بين الفصاحة والبلاغة، ولا بين الصحة النحوية والصورة الشعرية (مسعود بودوخة، صفحة 07).

3.3 جمالية نظرية النّظم والإعجاز القرآني:

لقد ربط الجرجاني الإعجاز بالنّظم ورأى أنّ القرآن الكريم معجز بنظمه؛ أيّ بتوخيه معاني النحو وأحكامه، ورأى أنّ هذا النّظم لا يكون في الحقيقة دون المجاز؛ إذْ القرآن الكريم هو الحجّة البالغة والمعجزة الخالدة للأسلوب العربي، في فصاحته وبلاغته، ذاخر بالحقائق اللفظية، وعبرّ بها في كثير من الآيات، واشتمال القرآن على الحقيقة لم ينكرها أو يختلف فيها أحد من العلماء الذين تناولوا القرآن بالدراسة من نواحيه كافة، وإنّما اختلفوا في المجاز ووقوعه في القرآن، ولو كان التعبير بالحقيقة أقل بلاغة من التعبير بالمجاز لخلا القرآن كلية من الحقيقة، وفُضِّل التعبير بالمجاز في جميع المواقف والأحوال، في تشريعه وتعليمه، كما في ترهيبه، وترغيبه ولسار على نمط واحد من التخييل والتأويل (حاتم الضامن، 1979، صفحة 94).

لقد استطاع الجرجاني الاستفادة من أقوال من سبقوه في مسألة اللفظ والمعنى، كما استفاد من أقوالهم في قضية النّظم، إلى ما هو أرحب متبنياً فكرة الإعجاز في القرآن ومنه قد امتلك تصوراً كامل الأركان لمقومات النظريّة اللغوية (لخضر الغزال، صفحة 101).

لم يتغلغل الجرجاني في عمق الإعجاز القرآني ولكنّه مهدّ الطريق إلى معرفته، إذ إنّ التعمق فيه يقتضي الوقوف على خضوع الكلام لقوانين الفكر ،ومحاكاته للمنطق لتكون بِنية اللغة موافقة لبنية عقلية، والاعتماد على ترتيب المعاني في الفكر في مجال الإعجاز يمسُّ بذات المولى سبحانه وتعالى، وهو ممّا لا قدرة للبشر عليه... (محمد كريم الكواز، 2006، صفحة 316).

تكمن لذّة القرآن الكريم هي في إعجازه، ولا يستشعر هذه اللذة إلّا من ذاق طعمها، ولا يستلذ بطعمها إلّا الذي أُتي حاسة ذوق مرهفة ومن زوّد بفطنة ونفس لم يشُبْها هوى عقيدة ضالة أو فكر تائه في ظلمات الجهل والتعصّب، هذا الكتاب الذي أرغم الفصحاء بعلو هامه وحيرّ البلغاء بسمو نظمه ، كيف لا وقد شدّت النجوم أزرها حين نزوله ورمت الشياطين بشهُبِهَا وقت تثبيته في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبتْ الجبال أن تحمله ، وأشفقت الأرض والسماوات من خشيته، قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (سورة الأحزاب/72)، وقال أيضا: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (سورة الحشر / 21)

وبعد أن طرق آذان الجن قالت: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الجن/1-2)

فلقد أعجز العرب ، أو الجن والإنس على أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، فبسورة ، وبعشر سور، وبحديث مثله، لكنّهم لم يتمكّنوا، وخير دليل على سحر القرآن و إعجازه ما أجاب به الوليد بن المغيرة المُعادي للرسول صلى الله عليه وسلم بقوله لما سُؤِل عنه: " فما هو يا أبا عبد الله شمس... والله إنّ لقوله لحلاوة، وأنّ أصله لمعذق، وأنّ فرعه لجنّة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا عُرِفَ أنّه باطل، وأنّ أقربَ القولِ فيه أن تقولوا ساحرٌ جاء يفرّق بين المرءِ وعشيرته ." وقوله" ... والله إنّ لقوله لحلاوة وإنّه ليحطِّم ما تحته، وأنّه ليعلو ولا يعلى عليه" (عبد المالك بن هشام، 1375-1955، صفحة 284).

اعترافٌ منهم وإليهم، من عدوّ الإسلام والمسلمين، وعدو القرآن المنزلِ بالوحي، بعد أن تأكد من أن لا قدرة لهم على محاذاته، ولو كان فقد اعترف ببطلانهم وما يفترون، فالقرآن كلام مُعجِز، معجزةٌ للرسول صلى الله عليه وسلم أوحيَت إليه، وليس بسحرٍ من ساحر، فما ينطق عن الهوى .

فإن كانت المقارنة بين النّظم والبديع في نهاية القرن الرابع الهجري (4هـ) قد ثَبّتَتْ مبادئ الفصل بين علوم البلاغة، الثلاثة (البيان ، والمعاني والبديع)، وكانت التفرقة بينها هي الأساس لاستقلال علم المعاني فيما بعد، وأنّ التفرقة بين بعض ألوان البديع هي أساس استقلال كل من علمي البيان والبديع ،ولكنه دون تحديد لمفهوم النّظم ، فإنّ المقارنة بين النّظم قد اسفرت عن ذلك كله في القرن الخامس الهجري (5هـ)، وهو ما تجسدّ واضحاً عند عبد القاهر الجرجاني، الذي أرسى نظريته على هذه المقارنة في كتابه (دلائل الإعجاز)، إضافة إلى كتبه الأخرى؛ (الرسالة الشافيّة– المقتضب... وغيرها)...

وقد فندّ كثيراً من الآراء حول جمال النّظم وتطبيقه على القرآن الكريم ، تطبيقاً أدّى إلى فهم الإعجاز فهماً بيناً، وبما أنّ البلاغة العربية هي سرُّ الإعجاز، فلا بدّ من البحث عن أسبابها، فاستعرض الجرجاني آراء من سبقوه في قضية الإعجاز، وردّه رافضاً أن الإعجاز بسبب الصرفة ،أو الكلم المفردة أو في معاني الكَلِم المفردة، أو أنْ يكون الإعجاز هو السهولة ، وعذوبة الالفاظ، أو هو الاستعارة، أو الفواصل، أو الايجاز أو المجاز، ولكنّه ردَّ الإعجاز إلى النّظم وحده، ومن سبقوه جعلوا البلاغة من بين وجوه الإعجاز، لكنّه هو جعله الوجه الوحيد له، فقد استلهم ممّن سبقوه مدقّقاً النظر في جهودهم بعد التسلح بعلم النحو وأصوله، الذي يراه لا يقف عند حدود النّظم في أواخر الكَلِم، بل يكون في الأسلوب ومطابقته لأغراض المتكلم وهو جوهر النّظم (أحمد أمين اسماعيل، 2011، صفحة 05).

فقد اتجهت الدراسات النحوية إلى القرآن الكريم لضبط نصه، ولم يكفِ ذلك لإبراز نواحي الإعجاز فيه، فوجهت الدراسة النحوية إلى النواحي الجمالية في التركيب القرآني لإبراز ملامح الإعجاز فيه ورصد العلاقات

التركيبية بين آياته ،ونسقها المعنوي كما فعل عبد القاهر الجرجاني ففي فاتحة كتابه (دلائل الإعجاز) يصحح مفهوم النحو (محمد كريم الكواز، 2006، صفحة 28)

فنظرية النّظم هي نظرية عامة في التذوق الفني لأنّ الجرجاني استنبت المعاني في حقول النحو، فلا تقف عند حدود إدراك الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم بل لتصحيح دراسة واسعة النطاق لأنساق التراكيب في العربية، لتؤتي أكلها على يد (الزمخشري ت538هـ) في تفسيره، واستقلال علم المعاني على يد (السكّاكي ت626هـ)، وهو ما رآه شفيع السيّد في كتابه(البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم). (شفيع السيد، صفحة 63)

وما يمكننا أن نختم به عنصر جمالية هذه النظرية ، وإعجاز القرآن هو محاولة الجرجاني الغوص في التركيب المعجز للآية الكريمة التي تصور انتهاء طوفان سيدنا نوح الذي عمّ أرجاء الأرض، وأغرق أعداء الدين الذين انكروا نصحه ونصيحته التي استمرت تسعمائة وخمسين عاما ، ونجاة سفينته بمن فيها ممّن آمنوا، ورسوّها على مكان مرتفع يسمى الجودي، هذا الحدث العظيم بأهواله وشدّة تأثيره يصوره القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ﴾ (سورة هود/44).

يناقش الجرجاني هذه الآية منكراً أن يكون إعجازها من ألفاظها، لأنه يمكن أن نأخذ كل لفظ منها على حدة فيكون لفظاً عادياً؛ فالكلمات (ابلعي) و(قِيلَ) و(استوتْ)، بهذا الوجه هي كلاماً عادياً ممّا تستعمله اللغة العادية في بناء الأساليب والتراكيب، ويردُّ موطن الإعجاز الحقيقي إلى سرّ التركيب والنسيج وشدّة التماسك والمواءمة بين عنصري الاختيار والتأليف ، وبين المعاني التي تكمن وراء التعبير، ولننظر إلى جمال النّظم في هذا التركيب (عبد القاهر الجرجاني وأحمد درويش، الصفحات 38-117).

ويرى أنّ الخطاب قدْ بُنيَّ على طريقة النداء ويراد به نحوياً- النداء- طلب الإقبال بحرف نائب مناب الفعل (أدعو) ومقتضى ذلك أن يكون المنادي كائناً عاقلاً، والاختيار النحوي لعنصر النداء هنا، له معنى نفسي، فهو يشير إلى تجسيد الأرض وإعطائها صفة الكائن العاقل وكونها ممّا يسمع ويعي، وذلك التجسيد يشير هنا إلى أنّ كل الكائنات الناطقة والصامتة أمام قدرة الله سواء، فهو خالقها، وهو الذي يستطيع استنطاقها وتوجيه الخطاب لها فتطيع، ثمّ أتى بعد النداء عنصر الأمر، وهو كذلك موجه لعاقل، ويرى مدى التنسيق بين عنصري النداء والأمر، حيث يعدُّ النداء ممهداً لإلقاء أمر ما وتنبيها للنفس عمّا سيلقى عليها، وهنا يظهر عنصر الاختيار اللفظي.

فاختيار الفعل(بَلَعَ) وصياغة فعل الأمر منه دون الفعل (شرب) مثلاً له دلالة خاصة، لأنّ الموقف هنا موقف انتهاء الطوفان من أداء مهمته وهي إهلاك الكافرين، لضرورة عودة الحياة فوق الأرض بعد عودتها إلى

وضعها الطبيعي بأسرع ما تكون العودة، والفعل (بَلَعَ) أكثر تحقيقاً للغرض من الفعل (شَرَبَ) حين تدلُّ مادة (البلع) في اللغة على سعة الحلق وسرعة الالتهام. ثمّ يأتي اختيار(المفعول)، فبدل اختياره لكلمة معرفة اختارها نكرة مضافة، فلم يقل (الماء)، وإنّما قال (مَاءَكِ)، والسِرُّ هنا في استعمال الضمير المضاف إليه، ويرجع إلى الأرض، فالماء ماؤها ؛هي من اخرجته وهي من ستبلعه تنفيذا لأوامر المولى سبحانه وتعالى، فهي كائن من كائناته، ومعنى ذلك أنّ انتقام الله ليس بعيداً عن مخالفيه ، وأنه يكمن في كل شئ وحتى الأرض التي هي مصدر للحياة ،إن أراد الله لها ذلك، كما هي مصدر للنقمة لمّا يريد لها ذلك (أحمد درويش، 1988، صفحة 38 ومابعدها).

وتركيب الآية بعدها هو نفس تنظيم الآية السابقة (و يا سماء اقلعي) إلّا أنّ الجملة هنا خالية من المفعول لأنّ الفعل لازم، وتماثل الجملتين في التراكيب النحويّة يدل على دقة التأليف في هذا التركيب، فقد تدخلّ عنصر الاختيار في فعل الأمر، فاختار الفعل (أقلع) بدل (كف) مثلاً لانّ الفعل أقلع فيه معنى الارتفاع غلى أعلى ، فكأنّ مياه السماء حين تقلَعْ لا تقوم بمجرد عملية إمساك استمرار الماء، وإنّما كأنّما الماء يصعد إلى أعلى بدلاً من انهماره إلى أسفل، وذلك كله مطلوب هنا لسرعة عودة الحياة الطبيعيّة إلى الأرض، وهكذا مع ما تبقى من آي السورة الكريمة .

ليصل بالقول إلى أنّ مبدأ العظمة في نظم هذه الآية هو في أنّ نُودِيت الأرض، ثمّ أُمرت، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال أبلعي الماء ، ثمّ أتبع نداء الأرض بنداء السماء، وجاء بعدها الفعل (غِيْضَ) بصيغة (فِعْلَ) الدّالة على أنّ الماء لم يغض إلّا بأمر آمر، وقدرة قادر، وتأكيد ذلك بقوله(وقُضيَ الأمر)، ثمّ ذكر الفائدة من كل هذه الأمور في قوله: ﴿ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ ﴾ ، فالسفينة هنا واردة في كلام أُضمِرَت فيه قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظمتها، والموقف أو السيّاق الواردة فيه، فالآية فيها مقابلة لفظة (قِيْلَ) في الخاتمة ب(قِيْلَ) في الفاتحة (أحمد درويش، 1988، الصفحات 118-125).

هذه الآية معجزة ربّانية انبرى المفسرون والبلاغيون يستخرجون مكنونها وما فيها من صنوف البلاغة وألوان البراعة، فقد حظي كل حرف منها بنصيب من العناية حتى أصبحت رمزاً للتحدي ، والإعجاز القرآني في كتب التفسير والبلاغة، ففيها من حسن النّظم وبلاغة الرصف واشتمال المعاني (أحمد قادم، المقاربة البلاغية للخطاب نماذج تحليلية، 2023، صفحة 71).

ومّما يُروى عن من اعترفوا بقدرة القاهر أنّ أحد الأعراب لمّا سمعها قال :" هذا كلام القاهرين"، و ينقل عن ابن المقفع (ت142هـ) أنه عارض القرآن ولما بلغ هذه الآية اعترف قائلا: "هذه الفصاحة التي لا تبارى، والبلاغة

التي لا يسابق المتكلم بها ولا يجارى، والقول الفصل الذي لا يُختلَفُ فيه ولا يُمَارى" (أبو حيان الاندلسي، صفحة 228).

وعن الزمخشري (ت 538هـ) في الكشاف أنّ علماء البيان استفصحوا هذه الآية ورقّصوا لها رؤوسهم لِمَا حازته من أفانينَ المعاني ، والبيان والبديع رغم قلة كلماتها (الزمخشري، صفحة 283).

فما من بلاغي نظرّ للبلاغة وبنى أنساقها إلّا وكانت هذه الآية أساساً لبيان النّظم والمعاني والبيان والبديع، وعلى رأسهم الجرجاني الذي عمل على دمج العناصر البلاغية للآية في عنصر النّظم تنظيراً ،وتطبيقاً، في شمولية تربط بين اللفظ ، والمعنى معاً متسائلاً عن سرِّ الإعجاز القرآني ومكمن إبهاره الأسلوبي ،ومنبع مزيّته وفضيلته، ومن دراسة وتحليل الجرجاني لهذه الآية يستخلص الباحث أو الدّارس أن الجرجاني قد لخصّ رأيه في نَظمِ آي القرآن الكريم بهذا النموذج الباهر (أحمد قادم، المقاربة البلاغية، الصفحات 78-79).

هذا عن جمالية النّظم في الإعجاز القرآني الذي ألّف كتابه "الدلائل" من أجله ليفسّر تفوقه تفسيراً علمياً، إذْ إنه يُعد تحدياً معجزاً بإعجازه ونظمه ، وبلاغته، وذلك للاستفادة منه في الأدب العربي وإدراك الخصائص الجمالية في اللغة التي لها ارتباط بالمعاني النفسيّة.

4. خاتمة:

وما يمكننا أن نختم به هذه الورقة البحثيّة هو خلاصة ما توصلنا له من خلال تناولنا لنظرية النظم للعلّامة عبد القاهر الجرجاني(ت 471هـ) البلاغي والنحوي المؤصل لجذور الأسلوبيّة العربية في تراثنا البلاغي العربي.

- الجرجاني صاحب فكرة النّظم وإن سُبِقَ من طرف بعض المعتزلة ، والسنة منذ القرن الرابع الهجري (4هـ)، فقد تفرّد هو في جانب التنظير والتطبيق لفكرة النحو العربي من زاوية علم المعاني والجمال البياني، وتعدى بتصوره للمعنى الحدود الدلاليّة حين تحدثّ عن (معنى المعنى ؛ المعنى المعجمي + المعنى الوظيفي = المعنى الدلالي)

- النظم عند عبد القاهر الجرجاني هو ترتيب للمعاني في النفس، لا ترتيباً للألفاظ لكونها تبعاً للمعاني، مع توخي معاني النحو، فالألفاظ خدم المعاني، وهما أساساً للظاهرة اللغويّة وجوهر الكلام حين يتآلفان في توافق محبوك في تركيب سليم .ومن هنا فإن نظريته لا تؤمن بالثنائية بين اللفظ والمعنى كما يرى البعض؛ فالكل عنده يفكر بالألفاظ ولا قيمة لها إلّا بعد صياغتها بفكرة واتحادها في أجزاء الكلام بنظم سوي.

-يرسم الجرجاني للنحو ملامح شعرية من خلال تحليله للنماذج من الخطاب البلاغي ،وما يسهم في بناء المعنى داخل النص، حيث لا ينظر إلى البنية النحوية المعروفة على أنّها (فعل وفاعل ...)

– الصورة الشعرية عند الجرجاني هي ألوانٌ نفسيّة مختلفة تصدر وتترآى في سياقات لغوية مليئة بالشحنات الشعوريّة ، والفكريّة، فلكل سياق صورة عامة تتجلى في النّظم الذي به نفاضل بين النّاس.

– ربط الجرجاني النّظم بالإعجاز القرآني ورأى أنّ القرآن مُعْجِزٌ بنظمه ، ورأى أنّ النّظم لا يكون دون الإعجاز، وهذا الإعجاز لا يستشعره إلّا من ذاق طعمه وامتلك حاسة ذوق مرهفة ،فمن سبقوه جعلوا البلاغة وجهاً من وجوه الإعجاز، لكنّه جعلها الوجه الوحيد له لأنّ القرآن تحدي معجزٌ بنظمه وبلاغته.

– عمد الجرجاني إلى تفسير مسألة الإعجاز تفسيراً علمياً من خلال نظرية النّظم، لتكون الحجّة به قائمة دائماً، وقد عمد لهذه النظرية ليستفيد الدرس العربي من نظم القرءان وتفرده في مجال البناء وجماليات اللغة الغنيّة بالخصوصيات المرتبطة بالنفس البشريّة.

فما من حسن أو ارتياح أو اهتزاز يستشعره القارئ للأدب شعراً أو نثراً يعود عند الجرجاني إلى الإجراءات النظميّة للكلام لفظاً وما يتولّد عنه من معنى ...

5. قائمة المصادر والمراجع:

***القرءان الكريم.**

1–ابن هشام، السيرة النبوية،ج1، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة، (بيروت– لبنان)،ط2،1357–1955.

2–أحمد درويش ، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب، القاهرة، دط، 1998.

3–أحمد علي دهمان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني ، منهجاً وتطبيقاً، وزارة الثقافة، دمشق ، ط2، 2000.

4–أحمد قادم ظن المقاربة البلاغية للخطاب ، نماذج تحليلية، ركاز للنشر والتوزيع ، الأردن ، أربد ، ط1، 2023.

5–أحمد محمد أمين إسماعيل، الإعجاز البلاغي لتحولات النظم القرآني، (في المتشابه من الألفاظ والتراكيب)، دار الكتب العلمية، (بيروت–لبنان)،ط1، 2011.

6–حاتم الضامن، نظرية النظم، وزارة الثقافة والإعلام (بغداد–العراق)، دط،1979.

7–شفيع السيّد، البحث البلاغي عند العرب ، تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي ، القاهرة، دط ، دت.

8–شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء ، ج18، مؤسسة الرسالة، ط2،دت.

9-عبد العاطي غريب علّام، البلاغة العربية بين الناقدين الخالدين، عبد القاهر الجرجاني وابن سنان الخفاجي، دار الجيل ، بيروت،ط1، 1993.

10-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1413-1996.

11-لخضر لغزال ، آليات الاتساق والانسجام النصي بين المقترح العربي والغربي، نوران للنشر والتوزيع ، تبسة ، الجزائر ، ط1، 2020.

12-محمد الطاهر الحمصي، من نحو المباني إلى نحو المعاني، دار سعد الدين ، دمشق، دط،1424-2013.

13-محمد العمري، البلاغة ،أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق،(بيروت -لبنان)،دط،1999.

14-محمد بركات، البلاغة العربية في ضوء منهج متكامل، دار النشر، (عمّان- الأردن)، ط1، 1416-1996.

15-محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية،دط،1424-1979 .

16محمد كريم الكوّاز ، البلاغة والنقد، المصطلح والنشأة والتجديد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2006.

17مسعود بودوخة، البلاغة العربية بين الامتاع والإقناع، دار الكتاب العلميّة، لبنان، ط1، 1439-2018.

18-مصطفى الصاوي الجويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف، 1985.